المحور الأول: ماهية الابستومولوجيا و علاقتها بالدراسات المعرفية الأخرى.

تحديد المفاهيم المتعلقة بالإبستومولوجيا:

1- النظرية: هي مصطلح يوناني الأصل مشتق من كلمة theorin التي تعني عملية الملاحظة، ووجود عملية الملاحظة في معنى أو تعريف النظرية يدل على أن النظرية هي عبارة عم مجموعة مترابطة من المسلمات و المفاهيم المتعلقة بظاهرة خضعت لمراحل التجربة العلمية كالملاحظة، التنبؤ، الاختبار.

النظرية ليست فرضية أو افتراض، النظرية هي أشمل و أقوى و أدق من الفرضية، لأن الفرضية هي عبارة عن عملية تنبؤ بوجود علاقة بين متغيرات المكونة للظاهرة بدون إخضاع الظاهرة للتجربة، أما النظرية هي عبارة عن إطار منظم من المفاهيم و المسلمات التي تحدد و تفسر طبيعة العلاقة الموجودة بين المتغيرات المكونة للظاهرة، ينشأ هذا الإطار من المفاهيم و المسلمات من براهين و أدلة علمية و عملية خضعت للاختبار و التجربة. و تتميز النظرية عادة بوجود علاقة سببية أو حتمية متعلقة بالموضوع أو الظاهرة، معنى هذا أن النظرية عي عبارة عن إطار منظم من المفاهيم و المسلمات التي تفسر الظواهر استناداً إلى القاعدة السببية، إذا توفرت معطيات و شروط معينة، فإنها بحكم الاختبار و التجربة ستؤدي حتماً إلى نتائج و معطيات.

2- الاقتراب (المدخل): هو مجموعة من الأفكار و المفاهيم المستخدمة من أجل التعامل مع ظاهرة معينة أو موضوع معين ، فالتفسير ظاهرة معينة يدفع الباحث إلى اختيار مجموعة معينة من المفاهيم و الأفكار التي توجه الباحث أثناء التعامل مع الظاهرة يسمى هذا الإطار من المفاهيم و الأفكار بالاقتراب.

الفرق بين النظرية و الاقتراب: الفرق الموجود هو أن النظرية أكثر دقة و علمية من الاقتراب، لأن الاقتراب هو عبارة عن مجموعة من المبادئ و الفرضيات التي تحاول تفسير طبيعة العلاقة الموجودة بين المتغيرات المكونة للظاهرة، بدون الارتكاز على علاقة سببية أو حتمية دائمة و علمية، عكس النظرية التي ترتكز أفكارها على أدلة علمية و عملية خضعت للتجربة المستمرة، مما أدى إلى وجود علاقة سببية و حتمية بين مكونات الظاهرة. فالاقتراب هو عبارة عن إطار مفاهيمي شامل لوجيه الباحث، بينما النظرية فهي بمثابة قانون علمي.

3- المنهج: هو عبارة عن مجموعة الخطوات المتبعة و الوسائل المستخدمة للوصول إلى القاعدة أو الحتمية العلمية، بمعنى آخر المنهج هو مجموعة إجراءات و تقنيات التي يحصل من خلالها على المعلومات و المعطيات المتعلقة بالظاهرة محل الدراسة.

هناك علاقة وطيدة بين النظرية و المنهج، فالمنهج هو عبارة عن مجموعة الطرق و الأساليب المستخدمة للوصول إلى النظرية، فالمنهج هو الطريقة التي توصل الباحث من خلالها إلى تحديد و تفسير طبيعة العلاقة الموجودة بين المتغيرات المكونة للظاهرة، ففي هذا الإطار المنهج هو وسيلة أو أداة تستخدم لتحقيق و الوصول إلى نتيجة علمية معينة.

4/ المدرسة: هي عبارة عن إطار معرفي علمي يشمل مجموعة من النظريات و الاقترابات و المناهج، وجود هذه النظريات في إطار معرفي واحد هو راجع أساساً إلى إيمان أو اقتناع هذه الاقترابات و النظريات بنفس المبادئ و المعتقدات العلمية و المنهجية، تنتمي إلى المدرسة فرقة علمية من الباحثين و المفكرين تؤمن بنفس المبادئ العلمية في فترة زمنية معينة و ليس في كل الحالات هذه المعتقدات تنشأ من مصدر أو أصل واحد يسمى بعميد أو مؤسس المدرسة.

5- النموذج المعرفي: و هو مجموعة متجانسة من المعتقدات و النظريات و الاقترابات و القوانين و المناهج، تشترك فيها و يؤمن بها أعضاء مجتمع علمي معين في فترة زمنية معينة، هذا التعريف يدل على وجود نشابه كبير بين مصطلح المدرسة و النموذج المعرفي .

استعمال النموذج المعرفي كان موجهاً بالأساس لميدان العلوم الطبيعية، و مع ظهور المدرسة السلوكية في العلوم الإنسانية حاولت تطبيق مفاهيم و مناهج العلوم الطبيعية في ميدان العلوم الإنسانية و لاجتماعية، لكنها لم تستطع الوصول إلى نموذج معرفي شامل و واحد يخص ميدان السياسة، بل وصلو إلى ضرورة وجود نماذج معرفية مختلفة لفهم شامل للظواهر السياسية، لأن ميدان السياسية و العلوم الإنسانية لا يمكن أن نطبق عليها قوانين ثابتة لما تتميز به الظواهر الإنسانية من حركية و ديناميكية و تعقيد و تنوع و تعدد.

كذلك يكمن الفرق بين النموذج المعرفي و المدرسة، و هو أن النموذج المعرفي أشمل إلى حدٍّ ما، فيمكن للنموذج المعرفي أن يحتوي على مدرستين أو عدّة مدارس، فهناك نموذج معرفي في العلاقات الدولية يسمى بالنموذج الراديكالي و هو يصور العالم كإخطبوط ذو الرؤوس المتعددة، هذا التصور يرجع و يركز على ظواهر الهيمنة و الاستغلال بالأشكال المتنوعة، و يدور موضوعه حول النظام العالمي و أنماط الإنتاج، و يشمل مدارس و نظريات رفضت واقع النظام الدولي و نادت بالتغيير على غرار الماركسية و التبعية... الخ، و هناك نموذج معرفي ثان و هو النموذج الواقعي الذي يركز على أن الدولة هي الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية و اعتبار القوة و المصلحة عوامل محركة في العلاقات الدولية، و تنتمي إلى هذه المدرسة العديد من النظريات على غرار، نظرية الفوضى، توازن القوى، الردع ...الخ.

إلى جانب الواقعي و الراديكالي هناك نموذج آخر يسمى بالنموذج التعدّدي، الذي يشمل مجموعة من المدارس و النظريات التي صورت العالم كبيت العنكبوت المركب من شبكة معقدة من العلاقات على غرار المدرسة الليبرالية و الوظيفية و الاعتماد المتبادل و العولمة...الخ.

ضل نؤرخ العلم إلى أوائل الستينات يعتمدون على أطروحة متوارثة من عصر التنوير ترى أن العلم يتقدم بشكل مستمر و منظم و متصاعد، إلى أن قدم توماس كوهن مفهوم النموذج المعرفي كإطار تفسيري لكيفية تقدم و تطور العلم من خلال ثورات علمية و ليس عبر خط تصاعدي.

النموذج المعرفي و تطور العلم: يرتبط تطور العلم و انتقاله من مرحلة إلى أخرى بظهور نموذج معرفي جديد يحدث ثورة في بنية العلم، من خلال ما يقدمه من حلول لمشكلات و معضلات علمية لم يتمكن النموذج القديم من التعامل معها، و طبقاً لرأي توماس كون فإن النماذج المعرفية تلعب دورا حيوياً و معقداً، فالمرحلة الأولى لمعظم العلوم أي مراحل ما قبل النموذج المعرفي كما يطلق عليها توماس موهن تتصف بأنها فوضى عامة من المفاهيم و الرؤى المختلفة و المتنافسة، لا يمكن وصف أي منها بأنها صحيحة، طالما أنها جميعاً تحقق توافقاً مع المنهج العلمي السائد في ذالك الوقت، و عندما تتحقق سيادة أي من هذه الرؤى و تتحول إلى نموذج معرفي الذي تتبناه أغلبية أعضاء المجتمع الأكاديمي، و يضل هذا العلم في حالة نمو و تطور و حيوية، ما دام قادراً على حل مشكلاته، و عندما يفشل النموذج المعرفي في تقديم الجديد و التعاطي مع المشكلات بصورة فعالة، و تضعف القناعة به، يظهر النموذج المعرفي الجديد، الذي يقوم بداية بهدم القديم و التشكيك في أسسه و معتقداته، و لا يعتبر النموذج المعرفي الجديد إضافة كمية إلى المعرفة الموجودة، و إنما هو تغيير ثوري قي القواعد و الأسس و إعادة صياغة الفرضيات الكبرى للنظريات السابقة، و عندما يتم التحول إلى النموذج الجديد فإن النظريات القديمة لا ينظر إليها على أنها كانت خاطئة طالما طبقت على تلك الظواهر التي تعاملت معها و فسرتها بدقة. و قبول نموذج معرفي جديد نادراً ما يكون سهلاً، لأنه يعتمد على عوامل مختلفة عاطفية و سياسية و علمية و إدارية، و ربما يستغرق أكثر من جيل واحد قبل أن يتأسس في المجتمع العلمي.

6- المنظور: يعّرف المنظور بمجموعة الرموز و المفاهيم التي يستخدمها الإنسان للاختبار من مجموعة بدائل في موضوع ما، و بذالك فإن المنظور بسمح لنا باختيار مدركاتنا و تنظيمها و توجيه أفعالنا.

و المنظور يعني القيم و المعتقدات و الاتجاهات، و المعاني التي تتوفر في الإطار الفكري، أو في وجهة نظر الفرد على موقف معين، و يتكون من مجموعة مبادئ تؤثر في ما يدركه الشخص في تفسيره للظواهر محل الدراسة. و عليه فإن المنظور يعكس تأثير القيم و التصورات للباحث على موضوع البحث،

و المدخل الذي يختاره، و النظرية التي يتبناها، كل ذالك يعكس دور البعد التأملي و دور الثقافة و الهوية على الباحث.

يرى كارل مانهايم: بأن المنظور هو الطريقة التي يرى بها الشخص موضوعاً من الموضوعات فالمنظور هو مجموعة العوامل المسئولة عن اختلاف شخصين في الحكم على موضوع واحد، إذن فالمنظورية تتلخص في أن كل معرفة هي نسبية للموضوع العارف و حاجتهن و تظهر وجهة نظر الباحث من خلال المنظور الذي يرى منه العلاقات الدولية، من ذلك المنطلق يقول روبرت كوكس:

(النظرية دائماً لبعض الأشخاص و لبعض الأغراض) و في رأيه كل نظرية تمتلك منظوراً خاصاً، و المنظور ينبثق من الوضع المحدد بالزمان و المكان، و بالتحديد الزمان و المكان الاجتماعي و السياسي، و رؤية العالم يتم من مواقع مختلفة، لذلك النظرية تمثل نفسها فقط، و يجب التعامل معها بطريقة نقدية.

مفهوم الإبستومولوجيا، و مراحل تطورها:

تقديم: تكتسي الدراسات الإبستومولوجية التي تتناول قضايا المعرفة عامة، و الفكر العلمي خاصة، أهمية بالغة في الوقت الحاضر، بل يمكن القول أنها الميدان الرئيسي الذي يستقطب الأبحاث الفلسفية في القرن 20م.

صحيح أن الفلسفة الحديثة هي على العموم فلسفة المعرفة بالمقارنة مع الفلسفة القديمة اليونانية أو فلسفة القرون الوسطى، حيث نقول أن هناك فرق بين فلسفة العلم أو المعرفة كما ظهرت في بداياتها مع كل من ديكارت و غاليلي و بين الدراسات الإبستومولوجية المعاصرة، التي ظهرت عقب الثورة العلمية الحديثة، التي شهدها العقد الأول من القرن 20م، فهناك فرق بين الفيزياء الكلاسيكية التي دشنها غاليلي و شيد صرحها نيوتن و بين الفيزياء الذرية الذي أرسى دعائمها اينشتاين و غيره من علماء الفيزياء الذرية، و بين الرياضيات المعاصرة و الرياضيات الحديثة من جهة أخرى.

و نحن هنا في الوطن العربي ما زلنا متخلفين عن ركب الفكر العلمي، تقنية و تفكيراً، و مازالت الدراسات الفلسفية عندنا منشغلة بالآراء الميتافيزيقية أكثر من اهتمامها بقضايا العلم و المعرفة و التكنولوجيا، الشيء الذي انعكست آثاره على جامعاتنا و مناخنا الثقافي العام، هذا في الوقت نحن في أحوج ما نكون إلى تحديث العقل العربي، و تجديد الذهنية العربية و الوسيلة إلى ذلك هو أنه لابد من الدفع بمدارسنا و جامعاتنا إلى مسايرة تطور الفكر العلمي، و العمل على نشر المعرفة العلمية على أوسع نطاق، إن توجيه اهتمام الطلبة و المثقفين إلى الفلسفات العلمية التي تعمل جاهدة على ملاحقة الفكر العلمي في تطوره و تقدمه و تحليل نتائجه و دراسة نتائجه ضرورة أكيدة،إذا ما أردنا الارتفاع بطلابنا و

مثقفينا إلى المستوى الذي يمّكنهم أن يعيشو عصرهم عصر العلم و التكنولوجيا، أضف إلى ذالك أن نشر المعرفة العلمية و أساليب التفكير العلمي على أوسع نطاق في المعاهد و الكليات هو الوسيلة الوحيدة التي تمكن من إقامة جسور بين المهتمين بالدراسات النظرية و المختصين بالأبحاث التطبيقية، و الذي يحقق وحدة التفكير بين مختلف قطاعات النخب.

مفهوم الإبستومولوجيا:

يعد التحليل الإبستومولوجي أحد أفرع الثلاثة للفلسفة التي انقسمت إليها الفلسفة في طورها الحديث، و هي: الإبستومولوجيا و الانطولوجيا و هي مبحث الوجود و الماهية، و الاكسيولوجيا و هو مبحث القيم و الجمال، و الإبستومولوجيا مفهم يتكون من مقطعين épistème بمعنى المعرفة العلمية و logos بمعنى علم، أي علم المعرفة العلمية، أو علم العلم، و هو هلم يجعل من العلم موضوع الدراسة.

و كثيرا ما يتم الخلط في الاستخدام العربي بين الإبستومولوجيا و نظرية المعرفة غير أنه إذا كانت نظرية المعرفة تهتم بدراسة جميع أنواع المعارف، فإن الإبستومولوجيا تهتم فقط بالمعرفة العلمية وحدها.

كذالك يقع الخلط بين الإبستومولوجيا و بين المنهجية و علم المناهج، ذالك أن علم المناهج هو العلم الذي يهتم بدراسة إجراءات الوصول إلى المعرفة، بينما الإبستومولوجيا تهتم أساساً بمبادئ المعرفة العلمية و افتراضاتها و نتائجها، هذا فضلاً على أن التفكير الإبستومولوجي يبدأ عندما تكون هناك أزمات في العلوم و فجوات في المناهج.

كما يقع الخلط أيضاً بين الإبستومولوجيا و بين تاريخ العلم الذي يهتم بتطور العلم و يبحث في التكوينات الجنينية للأفكار و الإرهاصات الأولى للعلوم المعاصرة، بينما الإبستومولوجيا تهتم بالكيفية التي تتحول بها الأفكار الجنينية إلى أنساق معرفية أو إلى أجزاء أنساق.

يعرفها لالاند: ((هي الدراسة النقدية لمبادئ العلوم المختلفة و فروضها و نتائجها، و تهدف إلى تحديد أصلها المنطقي و قيمتها الموضوعية)).

و تقوم فلسفة العلوم على ثلاثة منظورات، و هو منظور تحليلي قائم على تحليل قضايا العلم و تحديد بنيتها و من ثم تصبح لغة الإبستومولوجيا شارحة تقوم على تفكيك لغة النص العلمي، أما المنظور الثاني هو المنظور النقدي، فالإبستومولوجيا لن تكتفي بالتحليل و إنما أدخلت النقد الذي يشكل أداة ضرورية و حجر الزاوية في هذا الفرع المعرفي، أما المنظور الثالث فهو تاريخي و هو تتبع ظهور المسائل و تطورها و تطور حلولها عبر التاريخ بالتحليل و النقد، أي تحليل و نقد الأفكار الأساسية و استخراج المبادئ التي تقوم عليها العلوم في إطار نظرة تقويمية لقوانينها و نظرياتها.

و الإبستومولوجيا قبل أن تصبح فرعاً من الفلسفة كانت جزءاً منها، إلّا أن الاهتمام بهذا النوع من الدراسات بصفته العلمية لا الفلسفية كان حديث العهد و بدأ بشكل عام في الأربعينيات و بالضبط سنة 1935 عندما انعقد أول مؤتمر دولي لفلسفة العلوم في بالريس و الذي تم فيه تسمية هذا العلم، و من ثم أصبح متداولاً في الأوساط العلمية، و من إرهاصات ظهورها.

* أفلاطون أول من أصل لهذا العلم ، و منذ الإغريق و حتى القرن 16م لم تشهد تطوراً كبيراً.

* التطورات العلمية المختلفة التي انطلقت في القرن 16م منها أعمال الفلكي و الرياضي كوفلر الذي شرع في صياغة نظرية كوبرنيك الفلكية، ووضع قوانينها التي اشتهرت في علة الفلك، و ساهمت في الثورة العلمية.

* اكتشافات غاليلي التي من خلالها وضع قوانين لحركة الجسم الساقطة، و مفنداً التفسير الأرسطي الذي يرجع ذالك إلى فكرة الثقل، كما ساهم في محاربة الفكر الفلسفي الميتافيزيقي و الفكر الديني الكنسي.

* أعمال فرنسيس بيكون التي أثبت من خلالها عقم المنطق الأرسطي (القياس)، و عدم ملائمته كمنهج للبحث العلمي، و خاصة التجريب بأنواعه.

* أعمال ديكارت الذي أعاد الحيوية للعقل، أو ما تسمى بالفلسفة العقلية.

* ايمانويل كانط حيث أسهم بأبحاثه الفلسفية في التميز بين العلم و الفلسفة، و إقامة حدود بينهما في كتابه " نقد العقل الخالص" حيث أسس علماً لا هو بالعلم و لا هو بالفلسفة، و يستحسن تسميت هذا العلم بفلسفة العلوم.

* ظهور المدرسة الوضعية التي تبنت المنهج التجريبي و دعت إلى اعتماده في كل مجالات العلوم المختلفة.

* إسهامات بيثراند راسل الذي يعتبر أول من أعطى مفهوم واضح و أصل لمفهوم الإبستومولوجيا في القرن 20م، و الذي نظر إلى الإبستومولوجيا على أنه ذلك الفرع من الفلسفة الذي يركز على طبيعة المعرفة العلمية و مجالها.

و تنقسم الإبستومولوجيا إلى نوعين: أولهما: الإبستومولوجيا الشخصية أو الفردية و هي تلك التي ترتكز على علوم الإدراك و المعرفة البشرية، و تحاول أن تعرف و تفسر التكوين المعماري للعقل البشري، و ثانيها: الإبستومولوجيا الاجتماعية و التي تركز على الحقائق و النظم الاجتماعية للعلم و تقوم على تحليل النظريات و المفاهيم و المناهج و تحديد المبادئ و الافتراضات.

تطبيق التحليل الإبستومولوجي على مفهوم العروبة

العروبة هي كلمة تعبر عن شيئين هي الهوية و العرق و الحركة السياسية كتيار سياسي تتبنى هذه الفكرة ، و هو ما يطلق عليه القومية، و قد برزت في القرن 19م و بداية القرن20م ، عندما نمارس عليها التحليل الإبستومولوجي، فالعروبة أو العربي هو ذات أصل عربي، فالتحليل لا يكفي في النظر في هذا الطرح، بل نتساءل متى جاء هذا المصطلح هل كان فيه مفهوم آخر، متى انتقل إلى الفكر السياسي العربي ، و أصبح تيار سياسي، فنجد أن هذا التعريف جاء قبل القرن 19م ، مثلاً ابن خلدون تكلم في المقدمة عن العروبة ، و تكلم عن العرب العاربة و هم أصل العرب، و العرب المستعربة التي دخلت الإسلام و العرب البائدة، أي أن العروبة كانت في مفهومها هي الاشتراك في الثقافة العربية، ثم إذا رجعنا إلى مفهوم ابن خلدون فقد ربطها بمفهوم العصبية، أي أن هذا المفهوم متأثر و مناسب للبيئة الاجتماعية و للمرحلة التاريخية، ففكرة العصبية التي تفسر على أساس عرقي هي كفكرة دخيلة على المسلمين، لان الإسلام أكد على نبذ العصبية و التفرقة على أساس العرق، لكنها الفكرة كانت مستوحاة من الفكر الغربي الكنسي، التي انتشرت في أوروبا خلال القرون الوسطى و عصر النهضة، من خلال الحروب الدينية و ظهور النزعة القومية و انقسام أوربا على أساس عرقي (فرنسا ايطاليا اسبانيا ألمانيا ..). فالإبستومولوجيا تنظر إلى الخلفيات و إلى النتائج التي أدت إلى رهانات سلطوية، و الذي تكشف لنا من خلال التحليل الإبستومولوجي هي ضرب الوحدة التي كانت تمثلها الدول الإسلامية مجتمعة في إطار دولة موحدة، ضرب الوحدة الإسلامية و جعل المحيط الإسلامي محيط معادي (إيران ، تركيا، و خلق مشكلة الأقليات في العالم العربي الأكراد ، البربر، ...) و إخراج الدول الإسلامية غير العربية في الصراع حول قضايا مصيرية مثل القضية الفلسطينية، و عليه يمكن القول أن الرهانات السلطوية الموجود من خلال دعم فكرة العروبة و اتجاهاتها السياسية على ثلاثة مستويات:

1- مشروع الإستراتيجية الدولية و الغربية (مشروع سايكس بيكو و بناء إسرائيل).

2- مشروع إقليمي عربي من خلال النخب العربية، و تقزيم و تضييق الصراع من المحيط الإسلامي إلى المحيط العربي إلى المحيط القطري(مشكل أقليات، صراع سياسي داخلي بين العروبي و الإسلامي، الصراعات العربية العربية) و من ثم سهولة السيطرة و الاستغلال.

3- الهدف النهائي و هو الضامن لعدم قيام وحدة و هو غرس الكيان الصهيوني و إقامة كيان خاص لليهود في فلسطين.

و هذا الهدف يؤكد من خلال التحليل النقدي الإبستومولوجي لهذا المفهوم.

- علاقة الإبستومولوجيا بالدراسات المعرفية

يتداخل موضوع الإبستومولوجيا كفرع مهتم بقضايا العلم مع العديد من العلوم المعرفية التي تتخذ من العلم و المعرفة موضوعاً لها، مما يجعلها تتقاطع معها، كنظرية المعرفة، و فلسفة العلوم، و الميتادولوجيا.

1- علاقة الإبستومولوجيا بنظرية المعرفة:

تهتم نظرية المعرفة بتحليل طبيعة المعرفة و ارتباطها بمصطلحات مثل الحقيقة و الاعتقاد التعليل و التبرير، كما تدرس أيضاً وسائل إنتاج المعرفة، كما تهتم بالشكوك حول ادعاءات المعرفة المختلفة، بعبارة أخرى تحاول نظرية المعرفة أن تجيب عن الأسئلة ما هي المعرفة؟ كيف يتم الحصول على المعرفة؟.

و يرى أغلب العلماء المعاصرين ضرورة التميز بين الإبستومولوجيا و نظرية المعرفة استناداً إلى أن الإبستومولوجيا تهتم بنظرية المعرفة العلمية، في حين تتناول نظرية المعرفة كل أنواع المعارف، و عند التميز بين هذين المفهومين نجد ثلاثة اتجاهات أساسية:

الاتجاه الأول: يعتمده الفلاسفة الناطقون باللغة الإنجليزية و اللذين يستخدمون اللفظين بالمعنى نفسه، و لم يقيمون أية تفرقة بين الميدانين، فنجدهم يعرفون الإبستومولوجيا أو نظرية المعرفة بأنه ذالك الفرع من الفلسفة الذي ينصرف إلى دراسة طبيعة المعرفة و حدودها، و بالتالي يستخدم اللفظان للدلالة على المفهوم نفسه.

الاتجاه الثاني: فيمثل موقف الإبستومولوجيين الفلاسفة اللذين يقربون بين مفهومي الإبستومولوجيا و نظرية المعرفة، فالعلاقة بينهما حسب هؤلاء هي علاقة الجنس بالنوع، لأن الإبستومولوجيا تبحث في صورة خاصة من صور المعرفة و هي المعرفة العلمية، حيث إن الإبستومولوجيا تقتصر على شكل وحيد من المعرفة و هو المعرفة العلمية، و على الرغم من ذلك، فإن التمييز بينهما سرعان ما يمحى عندما نرجع النوع إلى الجنس وحده، كما هو الحال لدى المؤلفين الذين يطلقون تعبير المعرفة على المعرفة العلمية وحدها، و هو موقف الوضعية.

الاتجاه الثالث: فيمثله الفلاسفة الذين ينتمون إلى الاتجاه الوضعي، و اللذين يرفضون أن تكون هناك أي علاقة بين الإبستومولوجيا و نظرية المعرفة، حيث يعتبرون أن المعرفة هي نوع واحد و هي المعرفة العلمية، قلا يعترفون بأية نظرية لا تكون تحليلاً منطقياً لقضايا العلم رافضين في الوقت ذاته أن تكون هناك أية علاقة بين الإبستومولوجيا و نظرية المعرفة.

و بناءاً على ما سبق فالعلاقة بين نظرية المعرفة و العلم من أكثر العلاقات التي عرفت جدالاً بين العلماء و الفلاسفة، نظراً للتقارب بين المصطلحين لغوياً من جهة، و لكون العلماء يعتبرون أن أية معرفة في الوقت الراهن هي معرفة علمية، على اعتبار أن باقي المعارف الأخرى هي معارف سابقة عن المعارف العلمية.

2- علاقة الإبستومولوجيا بفلسفة العلوم:

فلسفة العلوم أحد أفرع الفلسفة تعتم بدراسة الأسس الفلسفية و الافتراضات و المضامين الموجودة ضمن العلوم المختلفة(العلوم، الفيزياء، الرياضيات، العلوم الاجتماعية و الإنسانية)، و عند التمييز بين الإبستومولوجيا و فلسفة العلوم نجد صعوبة بالنظر إلى مرونة مصطلح فلسفة العلوم، و كذا رفض البعض على الصفة الفلسفية للبحث الإبستومولوجي، بحيث يذهب البعض من الإبستومولوجيين إلى أبعد من ذلك، فيقطعون الجسر بين المفهومين و كأنهم يسعون إلى صون الإبستومولوجيا كمصطلح جديد من الفلسفة، الأمر الذي يقارب بين المفهوم و العلم، و هو ما يجعلهم يتحاشون استعمال هذه الكلمة(فلسفة)، و هو ما يميل إليه أولائك الذين لا يعترفون بأي شكل للمعرفة سوى الشكل العلمي، و أكثر من ذالك أن الإبستومولوجيا باتت تفلت من قبضة الفلاسفة، و تنتقل إلى العلماء أنفسهم، و هي سمة من سمات الإبستومولوجيا المعاصرة.

غير أن الإبستومولوجيا قد تحولت إلى مبحث من مباحث الفلسفة على مستوى الدراسات الأكاديمية، فإذا نظرنا إلى فلسفة العلوم بالمعنى الواسع وجدنا أن الإبستومولوجيا فصلاً من فصولها، فيعد التحليل الإبستومولوجي أحد أفرع الثلاثة التي انقسمت إليها الفلسفة المعاصرة، إلى جانب الانطولوجيا و هي مبحث الوجود و الماهية, و الاكسيولوجيا و هي مبحث القيم و الجمال. فالإبستومولوجيا ليست من صنع العلماء، و هي لا تخاطبهم إلاّ عرضاً، و من شأن الفلسفة أن تعتني عناية عفوية بفلسفة العلوم بهدف إيضاح سبل المعرفة العلمية، و تحديد موضوعاتها التي تتناولها و تبيان صحتها.

3- علاقة الإبستومولوجيا بعلم المناهج:

علم المناهج هو مجموعة العمليات العقلية و العملية الممارسة التي يقوم بها الباحث من بدء بحثه إلى نهايته، من أجل الكشف عن الحقيقة و البرهان على الفرضيات الموضوعة. و يعتبر علم المناهج الدراسة الوصفية لمناهج البحث المعتمدة في شتى العلوم، بينما الإبستومولوجيا هي الدراسة النقدية التي تبحث في المناهج و الأسس و النتائج.

و هناك اتجاهين من يرى أن التفرقة بين الإبستومولوجيا و علم المناهج هي تفرقة تخص القرن التاسع عشر، حيث كان علم المناهج جزءاً من المنطق، و يرى هذا الموقف أنه لا يمكن للإبستومولوجيا أن تبحث في مبادئ العلوم و نتائجها دون التساؤل حول قيمة و طبيعة المناهج المستخدمة، و عليه يمكن الاستنتاج بأنه لا يمكن الفصل بين المفهومين، لأن التفكير الإبستومولوجي يبدأ عندما تكون هناك أزمات في العلوم، و هو بهذا يشدد على التكامل بين العلمين، الإبستومولوجي لا يمكن أن يستغني في دراسته النقدية عن دراسة مناهج العلم، لأن دراسة المناهج العلمية مهمة في بيان مراحل عملية الكشف العلمي التي تعتبر من المجالات الأساسية للدراسات الإبستومولوجية.

إذن فالعلاقة بين الإبستومولوجيا و علم المناهج تتمثل في أن علم المناهج يقدم الدراسة الوصفية المستخدمة في تحليل المعارف العلمية، ثم تتعدى الإبستومولوجيا بذلك إلى الدراسة النقدية الرامية إلى استخلاص المبادئ التي ينطوي عليها التفكير العلمي.

كخلاصة يمكن القول أنه من الصعب الفصل فصلاً تاماً بين علم المناهج و الإبستومولوجيا، لا أنه من الصعب على الإبستومولوجي أن يدرس مبادئ و قوانين أي علم من العلوم دراسة نقدية دون أن يتساءل حول طبيعة و قيمة الوسائل التي يستخدمها و في مقدمتها المناهج، للوصل إلى النتائج.

- طبيعة البحث الإبستومولوجي و حدوده:

تحدثنا عن علاقة الإبستومولوجيا بالدراسات المعرفية الأخرى، و تبين لنا من خلال ذالك مدى الاختلاف السائد في هذا الميدان بين المهتمين بهذا النوع من الدراسات و الأبحاث، و هو اختلاف يرجع بالأساس إلى اختلاف المنطلقات و المفاهيم و النظريات التي يتبناها الباحث أو ذاك، مما يضفي على الأبحاث الإبستومولوجية المعاصرة الطابع الأيديولوجي الواضح.

أما بخصوص طبيعة البحث الإبستومولوجي، هل ينتمي إلى عالم العلم أو إلى الفلسفة، فهناك من يقطع كل علاقة بين الإبستومولوجيا و الفلسفة، استنادا إلى أن المعرفة هي وحدها المعرفة الحقيقية، و أن استقلال العلوم عن الفلسفة استقلالاً تاماً ومنذ عهد طويل، أصبح يستلزم حذف مصطلح فلسفة العلوم من القاموس الإبستومولوجي حتى لا يختلط الأمر بفلسفات العلوم القديمة (فلسفة التاريخ، فلسفة الطبيعة،

فلسفة الحياة ...الخ) هذه الفلسفات التي كانت تسطو على بعض النتائج العلمية و ترتكز عليها في تشديد منظومات فلسفية.

إن الإبستومولوجيا في نظر هؤلاء لا يمكن أن تصبح علماً جديراً بهذا الاسم إلاَّ إذا تحررت نهائياً من جذورها الفلسفية، و التزمت الموضوعية التامة، و ارتكزت على المناهج العلمية، الشيء الذي يمكنها من الاندماج في العلم و التحلي بخصائصه و مميزاته، هذا الاتجاه يسمى بالاتجاه الوضعي، و الذي يقصر مجال البحث الإبستومولوجي في لغة العلم، إن موضوع العلم في نظرها هو أشياء الطبيعة، أما موضوع الإبستومولوجيا فهو الخطاب العلمي القائم على المنهج التجريبي.

أما بخصوص حدود البحث الإبستومولوجي في إطار النزعة الوضعية ذاتها، فيمكن التمييز بين اتجاه ضيق مغلق، و اتجاه مرن متفتح، بين دعاة الإبستومولوجيا الخاصة أو الداخلية و بين أنصار الإبستومولوجيا العامة.

إن أصحاب الاتجاه الأول ينطلقون في الغالب من كون القضايا و المشاكل التي تخص علماً من العلوم/ قد لا تخص بالضرورة علماً آخراً، فمشاكل الرياضيات ليست مشاكل الفيزياء و مشاكل البيولوجيا ليست هي مشاكل العلوم الإنسانية، إن محاولة الجمع بين قضايا العلوم المختلفة في إطار أو نسق إبستومولوجي واحد عمل فلسفي لا يستفيد منه العلم، لذالك يحرصون على أن يحتفظوا للإبستومولوجيا بطابعها العلمي، فكأن الإبستومولوجيا في نظرهم لا تختلف عن علم المناهج إلاَّ بقدر ما يكون التحليل أكثر عمقاً و النقد أكثر صرامة.

أما أنصار الإبستومولوجيا العامة فهم يرون أن هذه النزعة العلمية الضيقة لا بد أن تصطدم بمشاكل تفرض عليها توسيع دائرتها، فالمشاكل التي تعترض علماً من العلوم كثيراً ما تكون نفسها التي تعترض علماً آخراً، هذا فضلاً على أن العلوم نفسها متداخلة و متشابكة، تقوم بينهما علاقة لا يمكن تجاهلها فالعلوم الإنسانية فصل بعضها عن بعضها فصلاً نهائياً لا يساعد على تقدم المعرفة البشرية في الميدان الإنساني هذا من جهة، و من جهة أخرى فإن معالجة القضايا و المشاكل الإبستومولوجية الخاصة بكل علم لن تكون مثمرة إلاَّ إذا تم تحليلها و النظر إليها من عدّة زوايا.

و إلى جانب هذا الاختلاف حول حدود البحث الإبستومولوجي من حيث الاتساع و الضيق، هناك اختلاف آخر بين الباحثين الإبستومولوجيين حول نوعية التحليل، أي اختلاف حول المنهج، بين من يقول أن دراسة العلوم كما هي في مرحلة ما من مراحل تطورها دون الرجوع إلى تاريخها و تطورها، و بين من

يقول أن دراسة العلوم و تناولها لا بد أن يكون من خلال سياقها التاريخي التطوري، و هكذا نكون أمام نوعين من الدراسات أو منهجين: منهج التحليل المباشر، و منهج التحليل التكويني.

إن منهج التحليل المباشر هو المفضل عند أصحاب المدرسة الوضعية، التي تتناول دراسة العلوم دون الرجوع إلى ماضيها أو مراحل تطورها، بل يقتصر على تحليلها و مناقشتها و نقدها كما كانت في عصره، و إذا كان المنهج التحليل المباشر قد لقي رواجاً كبيراً عند علماء النزعة الوضعية، فإن المنهج الثاني المنهج التاريخي التطوري التكويني له أهمية عند ذوي النزعة الفلسفية منهم.

و الواقع أن الدراسة النقدية للعلوم تحتاج لكي تكون دقيقة و شاملة إلى الرجوع إلى ماضي العلم ذاته، و أحياناً كمقارنة بين الأسس و المفاهيم القديمة و الجديدة، إن المعرفة سواء كانت علمية أو فلسفية هي ذات طبيعة تاريخية دوماً، و الإبستومولوجيا التي تريد أن تكون نظرية علمية في المعرفة لا بد لها من تاريخ العلم، لا تدرسه لذاته كما بفعل المؤرخ، بل من أجل الاسترشاد و الاستفادة منه في فهم المشاكل المطروحة في الحاضر.

من خلال ما سبق ذكره أن الدراسة تطور العلم يختلف باختلاف معيار الدراسة، فإذا نظرنا من زاوية نقدية أي من حيث المبادئ و المناهج و الأدوات و النتائج، فهو بناء خاص لا يشترك مع المعارف السابقة في شيء، أما إذا نظرنا إليه من زاوية وصفية تاريخية فهو امتداد للمعرفة العامية.